

راهن اللغة العربية في أوطانها

د. طلعت الرفاعي - سوريا •

إيماناً بما للغة العربية من نزعة النضال والتحرر المؤمن بقدرة الشعب على الانعتاق والحفاظ على ملامح الخصائص العربية إزاء التحديات والأحداث الراهنة التي تستهدف أمتنا وحضارتها فقد نص الإعلان الذي صدر عن مؤتمر القمة العشرين لمجلس جامعة الدول العربية الذي انعقد بدمشق في شهر آذار عام 2008، على التوصية التالية:

((إبلاء اللغة العربية اهتماماً ورعاية خاصة باعتبارها مواكبة للتطور العلمي والمعرفي في عصر العولمة والمعلومات ولتصبح أداة تحديث في وجه محاولات التغريب والتشويه التي تتعرض لها ثقافتنا العربية)) ولا شك في أن هذه التوصية صدرت بعد نقاش طويل في جلسات المؤتمر، تم فيها دراسة راهن اللغة العربية وما أصابها من جحود لدى أبنائها وما تتعرض له من تيارات العولمة وسيلها الجارف في نسف هوية الشعوب وجوهر ثقافتها وسماتها .

وإذا كان لم يعد خافياً ما أصاب لغتنا من علل فإن الواجب يحتم علينا اليوم بذل كل غال ورخيص في إيقاف التزيف وإيجاد العلاج الناجع قبل استفحال المرض وسريانه في جسد المنطقة وأمام هذا الواقع المتردي الذي تكابده لغتنا لابد لنا من التشخيص الدقيق في سير غورها ومعرفة خصائصها وأسرارها وهذا يقودنا إلى إمعان النظر في الأمور التالية:

1- اللغة العربية كائن حي :

وهذه العبارة ليست على سبيل المجاز بل هي حقيقة نابضة نحسها بكامل كياننا ونبرهن عنها ، فمن المعلوم أن للكائن الحي شرطان هما الروح والجسد يؤثر كلاهما في الآخر ويتحد به ، فإذا كنا نريد القوة والسلامة لهذا الكائن الحي علينا العناية بالروح والجسد مما هو في أمس الحاجة إليه ، وإذا كانت النفس البشرية بكل ما تزخر به من مدارك ومشاعر ، هي الكيان الحي فإن كل ما يصدر عنه الكيان الحي إنما هو حي تسري فيه الحياة بأجلى ومضها ونبضها . وإن الفكر أو المعنى الذي ينبثق من الروح لابد أن يكون هو بعض هذه الروح التي تتجلى في الحرف وتتوحد به وتلك هي اللغة في أدق ملامحها .

• رئيس مجلس إدارة رابطة الحكمة عضو تحادي الكتاب والصحافيين العرب والأكاديمية العالمية للثقافة والعلوم وحقوق الانسان.

2- اللغة العربية لغة التفجير والخيال المنح :

لما كانت اللغة هي الجسد الحي الذي تتألق فيه الروح، فإن المعنى يكون بمثابة الروح التي تختار جسدها الخاص بها، وإذا عزّ عليها العنور عليه فيما هو كائن في عالم الكلمة قامت بعملية التفجير ابتغاء الحصول على كائن لغوي جديد لم يكن مولوداً من قبل ، وبذلك تكون العلاقة بين المعنى والحرف أشبه بعلاقة الكائن الحي مع نصفه الآخر المختار اللاسواه في رحلة التوحد الحياتية المتجددة الخلاقة ! . .

يقول شاعر الثورة الجزائرية :

من حومة الميدان حتى المربعاً الضاد والرشاش قد نطقاً معا
قمم موطأة المتون لثائر روى صنوبرها دمماً فتضرعاً

وإنه لمن الصعب بل أقول من المحال استبدال أي كلمة بأخرى تفي بنفس الغرض على أية لغة ، أو تفيض بمثل هذا الخيال المنح الرفيع فتسمع فيها (الضاد والرشاش) وقد نطقاً معاً وتشعر بأنك تهمز وأنت ترى متون الجبال وقد توطأت أمام هيبة وجبروت ذاك المناضل البطل الذي روى أشجار صنوبرها من دمه فتحركت فروعها وراحت تمتد إلى العلاء متضرعة لعظمة هذا الثائر الفذ المارد ! .

وما تلك الروح التي انبعثت من كلمات الضاد والرشاش ومن تضرع فروع الصنوبر إلا هي نفسها التي انبعثت من روح الشاعر وبثت فيها الحياة بأنضر ما تفيض به من عبق عبقريتها وبريق عنفوانها الآخاذة الآسرة، مما لا يمكن العنور على نفس التأثير فيما لو نقل هذا النص إلى لغة أخرى.

وما دمنا في مجال التفجير والخيال لنستشهد بالأبيات التالية لشاعرة عربية تخاطب البحر فتقول :

يا بحر هات على زنديك أغنيتي فإني أنا عشق البحر والقبل
«أنسنه» يوم هذا البحر «بحرني» وحن حين بموجي راح يغتسل
حي هو الموج نبض البحر يعزفه ومن سوى البحر للأمواج يحتمل

وهنا نرى أن كلمتي «أنسنه و بحرها» لم تكونا موجودتين من قبل

اللغة العربية لغة الإعجاز والإيجاز . .

إن نظرة خاطفة نتأمل بها خلود اللغة العربية على مر الحقب ورسوخها لدى ملايين البشر على ظهر الأرض تؤكد روعة هذه اللغة وقدسيتها فما من آية في القرآن الكريم إلا وتحمل المرء إلى عالم من الإعجاز العلوي المهيمن

أمام ما تكشف له من أغاز هذا الكون العجيب المطلق وعظمة الخالق الأعلى الذي وسع كرسيه السماوات والأرض) فبفضل القرآن الكريم تم الحفاظ على لغتنا من الضياع والاندثار رغم الهجمات التي ابتليت بها عبر مختلف العصور.

يقول «غلاذ ستون» رئيس وزراء بريطانيا منذ أكثر من قرن :

«ما دام هذا القرآن لدى العرب فلن يتمكنوا منهم»

ويقول المستشرق الألماني بيكر : «لا سبيل للوصول إلى الشرق، ما دام هذا القرآن موجوداً»

هذا علاوة عما تزخر به كنوز الأدب العربي من شعر ونثر مما تضيق الإحاطة به في هذا المجال ويكفي التلميح إليه لنحس بدقة الإيجاز فيما تحمله إلينا لغتنا العربية من عبقریات وروائع خالدة في مختلف آفاق الخلق والإبداع .

العربية لغة الحب والحق والسيف :

ما من لغة تفردت بالمقدرة في تصوير ألق المعاني وأبلغها في نفوذها إلى الأذهان والأفئدة مثل اللغة العربية.

يقول المتبني في دفاعه عن الحق وهو يصف قاضياً عادلاً:

قاضي إذا التبس الأمران عن له رأي يفرق بين الماء واللين

ويقول شاعر الجبل:

الحق والسيف من طبع ومن نسب كلاهما يتحدى الخطب عريانا

وتقول الشاعرة العربية:

الحق شمس لكل الناس ... إن أفلت في الغاب هب نذير البوم محتجبا

مد فارق الحق بين الناس واحتته صرح الحياة غدا في أيكه خربا

يا أيها الناس دين الحب قبلتكم ولا حياة إذا دين الحياة كبا

كل الديانات دين الحب وحدها لا دين إلا لدين الحب مُتَسِبا

العربية: لغة الوحدة والقومية العربية المقاومة:

لقد وحدت اللغة العربية بين سائر العرب والمسلمين منذ أقدم العصور ، بصفتها لغة القرآن الكريم العربي فهي اللغة الأم التي تأثرت بإعجاز القرآن الكريم فأكسبها الجزالة في النطق والثروة في المعاني ، والبلاغة في البيان ، وما سرى فيها من روحه الأمين ، مما ظهر أثره فيما سجله العباقرة العرب من روائع وابداعات ، ومن هنا كان أول

هدف للغزاة المستعمرين فصل هذه اللغة عن التعامل الحياتي ، لأنها الرابطة القوية التي توحد بين أبناء الأمة الواحدة وراحوا ينعوتها بالتخلف والعجز عن مواكبة علوم العصر خلافاً لكل علم ومنطق ، ويبدلون الجهود لاعتماد اللغة العامية وكتابتها بالأحرف اللاتينية بهدف تفريق العرب وتغريبهم وضرب وحدتهم وحضارتهم . وما نزال نرى اليوم هذا الأثر يستشري فيما تشنه العولمة من حملات وإقامة الحواجز بين الأمة العربية وتراثها الخالد وما تتعرض له لغتنا من طوفان العامية واللغات الأجنبية التي تستهدف اقتلاعها والحلول مكانها، بدلاً من العمل على الإثراء اللغوي جنباً إلى جنب مع اللغة الأم، والترجمة منها وإليها.

ولكن العربية ما تزال تصمد وتتصر على أعدائها بما تمتلكه من أسرار القوة والبقاء، مهما يكن لهؤلاء المغرضين من سطوة وجبروت. ويعرف أبناء أمتنا كيف كان الخطاب الثوري خلال المعارك يقود الملايين إلى ((الزحف المقدس)) بما تفجره الكلمة في النفوس من روح المقاومة والاستبسال دفاعاً عن عزة الوطن وكرامته.

تقول الشاعرة في بعض المواقع

ما فلسطين السليبية

ما ((بور سعيد)) ما الجزائر

ما اليمن الخصبية

ما القدس. ما بغداد. ما لبنان

إن تنوعت المصيبة

هي كلها وطني الصمود

بوحدرة كبرى قرية

هي كلها وطني الكبير

وتقول مخاطبة الوطن الكبير . .

وعلى ثراك أنا النخيل مخيم

أنا كل شبر من رحابك ساهر

وأنا عليه الجدول المترنم

أنا صخر كالعاني الصمود كبره

حميماً أنا الرز الشموخ يحوم

وأنا أنا (أوراس) يقذف اللظى

عطش إلى تاراته لا يفطم

أنا كل شبر في أهابك تائر

وعلى ثراك أنا اللهب أنا الدم

أنا في سماءك عاصف متنرد

العربية لغة الموسيقى والحكمة :

كثيرون من غير الناطقين بالعربية يقولون أنهم يحسون بالموسيقى لدى سماعهم التكلم باللغة العربية حتى وإن لم تكن شعراً.

وكثيراً ما نُحسّ ونُحن نصغي إلى متحدث بارع محب للعربية، وكأنه يعزف على آلة موسيقية، بنطقه الجميل وترتيب إيقاعها، ولعل هذه الخاصية الموسيقية في العربية هي التي أهمت العديد من الملحنين أن يبدعوا فيما لحنوه وغنوه من روائع مما يدعوننا لوضع خطة لتعليم إتقان النطق بالعربية كما تفعل معظم دول العالم بلغتها الأم.

وإذا كانت الحكمة هي القنديل الوهاج الذي يضيء الشعاب المدهمة يسلكه الإنسان في دروب الحياة، مما جعلها (ضالة المؤمن) فإن لغتنا تزخر بتلك الينابيع الثرة التي لا ينضب لها معين، ولا أدل على مكائنها مما ورد في القرآن الكريم حين قال: ((يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً))

يقول: زهير بن أبي سلمى:

وهما تكن عند امرئ من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ويقول المتنبي:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى

وتقول الشاعرة العربية:

يا زمانا يضمن الناس مهلا ويلى من بنّيه الناس ويلا

أين من يلهب الحماس ويدكي في النفوس الحياة حبا وبذلا

أين من يكل في العزم حتى يظهر الحق ساطعا يتجلى

لا تقل لي أمية الحرف خطب شر خطب أمية تتولى

أفدح الخطب أن تسلم سيفاً لغبيّ يصول بالسيف جهلاً

ومهما نورد من الأمثلة في هذا المجال فإن الحديث لا ينتهي والنهر لا يتوقف وجرار الرحيق لا تفرغ أبداً.

وكم من رياضٍ قطرة العطر بوحها وكم من كروم في لمى الراح تختصر

العربية لغة التطوير والتجديد:

إن اللغة العربية كغيرها من اللغات إنما وجدت لتفي بحاجات أبنائها في كل زمان ومكان بصفتها فعالية اجتماعية تصدر عن الأحياء وتتسم بسماقتهم ومثلهم تتميز بالقدرة على التطور والتجدد وفق ما تقتضيه الحاجة ومواكبة العصر.

وإذا كان العقل المفكر هو الذي ينتج اللغة ويبدعها فإن الطاقة الفكرية بدورها في اللغة تعود من جديد للتفاعل مع العقل المفكر في عملية التجانس والتوليد، طبقاً للغرض المتوخى والحاجة الملحة إليه وبذلك تستمر عملية التعامل والتوليد الفكري لدى الإنسان طبقاً بطبيعته ورصيده الفكري والمعرفي مما يمتلكه في خزان العقل والوجدان.

فإذا أردنا لإنساننا العربي لغة فكر سليم منظم متوازن قابلاً للفهم في الافناع والاقناع علينا أن نعنى بالعقل العربي المولد الأول لهذه اللغة ولا يكون هذا الفكر سليماً وقوياً ومبدعاً إلا إذا تغذى بالعلم والمعرفة وبالقيم الأصلية التي عرفت بها أمتنا في مواكبة معطيات العصر في شتى ميادين العلم والإبداع.

ولا يمكن التوصل إلى خلق مثل هذا الفكر العربي السليم المبدع إلا إذا أتقن صاحبه اللغة العربية السليمة التي تعبد له مسالك الفهم والإدراك، فيسري نسغها في عقله ووجدانه وتتوقد في ذاته جذوه التوق المضيفة التي تقوده إلى الخلق والإبداع.

إن الإسراع في تنقية اللغة اليوم والسير بها في طريق الإصلاح من أهم ما تدعو إليه الحاجة أمام ما يتهدد لغتنا من أخطار وأول ما ينبغي التفكير به على الساحة العربية هو إذكاء روح الإحساس بالانتماء القومي والثقة بالذات في القدرة على تحمل المسؤولية دون أي تمهل أو تأجيل.

عندما أعلن عبد الكريم الخطابي ثورته قال له بعض رفاقه ((لنتنظر حتى يكون لدينا أسلحة)) فرد عليهم قائلاً: ((تحولوا إلى مجاهدين تأتكم الأسلحة، والسلاح الأول هو أن تؤمنوا بالواجب وضرورة القيام به)) ومن الأهمية بمكان اليوم تحميل الشباب العربي هذا الواجب في دعم لغتهم وانفاذها من برائن الذوبان والضياع. فما من لغة سلمت وسمت إلا وارتقى معها الإنسان وعم الحوار والتفاهم بين الناس.

سئل الفيلسوف الصيني (كونفوشيوس)

(إذا أتيت لك أن تحكم البلاد فما هو أول عمل تقوم به) فقال: «أصلح فيها لغة القوم» فقيل له : (إذا كانت لغة الناس غير سليمة فإن ما يقال لهم غير الذي يفهمونه ، وإذا كان ما يقال غير الذي يفهم تلبلت العقول وفسدت الأحكام وانعدم الأمان وسادت شريعة الغاب! .)

فالإنسان هو اللغة، وإذا سلم تفكيره سلمت لغته وإن معيار شخصيته وحجمها إنما يرتبط بلغته زيادة أو نقصاناً.

يقول زهير بن أبي سلمى:

زيادته أو نقصه في التكلم

وكائن ترى من صامت لك معجب

واللغة العربية التي حملت بالأمس مشعل الحضارة والإنسانية لقادرة أن تكون اليوم لغة العلم والمعرفة وأن تضاوي لغات العالم في مختلف الأنشطة والمجالات ولكي نصل إلى هذه النتائج نورد هذه الاقتراحات.

1- العودة باللغة العربية إلى مكائنها التاريخية باعتبارها القادرة على استيعاب مجمل العلوم في كل عصر ونقلها إليها فقد استطاع فلاسفة العرب في القرن التاسع أن ينقلوا إلى لغتهم رسائل (أرسطو طالين) كما نقلوا مختلف العلوم في عهد الغزالي وابن رشد وابن سينا دون أي اختلاف بين اللغة العربية وسائر لغات العالم.

2- التطبيق العملي لدساتير الدول العربية التي تنص على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة.

3- تنفيذ توصيات مؤتمرات الجامعة العربية ووزراء التعليم العالي والصحة والاقتصاد وسواها من الوزارات.

4- دعوة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومجامع اللغة العربية ورابطة الحكمة ومختلف الهيئات الناشطة في هذا المجال لوضع خطة لتمكين اللغة العربية وفق إستراتيجية علمية والعمل على متابعة توصياتها وتنفيذها.

5- خلق تيار علمي تكنولوجي معاصر بين الشباب العربي يؤدي إلى الاختراع والابتكار وعرض المنتج العربي في سوق الإنتاج العالمي المعاصر بأسماء عربية بدلاً من الأسماء الأجنبية.

6- دعوة كبار الأدباء والشعراء العرب لنشر مخطوطاتهم الابداعية وايصالها إلى الناشئة بدلاً من تركها في السرايب المظلمة دون الاستفادة منها فالكتاب الجيد هو القادر على تشويق القارئ وبث حب اللغة لديه وكشف مواطن الجمال فيها.

7- اعداد المعلمين والمربين من ذوي المرونة والخبرة للقيام بهذه المهمة.

8- الحض على إبراز دور الإعلام المثقف المسؤول باعتباره المرآة التي تعكس للعالم حضارة الأمة وتنقيته مما يصيب اللغة من أخطاء على ألسنة المذيعين والمذيعات وفي المسرحيات والمسلسلات الإذاعية والتلفزيونية.

9- العمل على حفظ الآيات القرآنية واتقان النطق السليم لدى تلاوتها.

10- العمل على حفظ المختارات الشعرية القيمة من الشعر القديم والحديث.

11- تعليم اللغات الأجنبية الحية للأطفال بدءاً من رياض الأطفال لاكتشاف المهارات اللغوية فكل لغة سلاح يثري العقل ويمكن من الاطلاع على التراث العالمي والإنساني.

12- مقاومة حصار العامية واللغات الأجنبية للفصحى من وسائل الإعلام وفي شتى مجالات التعامل من فنادق ومطاعم ومقاهي وشركات ونوادي حيث تزحف اللهجات السوقية والأغاني الهابطة.

13- العمل على الاعتزاز باللغة الأم وترسيخ محبتها في نفوس الناشئة وحمايتها.

يقول: (الثعالبي) في «فقه اللغة وسر العربية»

من أحب الله أحبَّ رسوله ومن أحب النبي العربي أحب العرب ومن أحب العرب أحب اللغة العربية وأتقنها.

ويقول الشاعر العربي:

إني أحبك كي أبقى على صلة بالله والأرض والتاريخ والزمن
أنت البلاد التي تعطي هويتها من لا يحبك يبقى دونما وطن

14- تعليم اللغات الأجنبية مع إتقان اللغة الأم. يقول الشاعر:

بقدر لغات المرء يكثر علمه وتلك له عند الشدائد أعوان
فيأدر إلى حفظ اللغات مسارعاً فكل لسان في الحقيقة إنسان

وفي الواقع إن تمكين اللغة العربية هو تمكين هويتنا وثقافتنا وقيمنا النبيلة، وإن دعمها والارتقاء بها إنما هو مسؤولية المجتمع بكامله.

واليوم وثقافتنا تتعرض لأعتى التحديات لا بد من استنهاض الضمائر لنعيد للغة العربية عزتها ومكانتها ، ولا يكون ذلك إلا بغرس الثقة بالذات وإعلان شأن المفكرين والمبدعين وتعزيز سلاح العلم والمعرفة ، ولاسيما في هذه المرحلة التي تمر بها أمتنا ، وما تتعرض له من استهداف طاقاتها وإشاعة الإحباط واللامبالاة بين صفوفها في التباس المفاهيم وسلبية التفكير والعمل مما يحث على بعث الهمم للتمسك بلغتنا حفاظاً على ملامح الأمة الواحدة والإيمان بالمصير الواحد إزاء الأحداث الراهنة التي تستهدف كيان أمتنا ووجودها وأقدس مقدساتها .